

به أو لعب معه دون ما مواجهة . لا بد أنك تعلم أن الحكم نوع من التحيز ، وأن الحكم لا يبطل لأنه تحيز ، وإنما يبطل إذا كان تحيزاً رديئاً . هذا هو منطق العقاد .

(١٢)

لقد نظر العقاد إلى الشعر الرديء باعتباره تلويثاً لطبيعة الإنسان . وكان هذا التلويث واضحاً عنده لا يحتمل المساومة . لم يشأ العقاد أن يقوم بتحسين الشعر . كان يرى التحسين جهداً لا ينفق إلا إذا استقام العمل مع طائفة من مرامي النزعة الإنسانية . وبعبارة أخرى كان مطلب النمو عنده بمعزل عن الدفاع المبدول أمام كل نص . الدفاع أو التعاطف الذي عرف في بعض الأجيال التالية كان نوعاً من المراتبة الذهنية الذكية التي يتحرج العقاد من بعض آثارها . لقد عفت هذه المراتبة على التمييز بين الشعر الجيد والشعر الرديء ، وأصبحت أدل على عقل الناقد لا على قدرة النص المنقود . لم يكن العقاد يؤمن بهذا الضرب من التسامح الذي يعنى على فكرة الحدود ، أو يعنى على مطالب أساسية في تقويم الإدراك والشعور ، إن تصحيح الإدراك والشعور يحتاج لا محالة عند العقاد إلى نوع من التحيز . لا ريب كان كشف المبادئ الخصمة للنمو عملاً مطلوباً ، وكان العقاد يدرك إدراكاً جلياً أن المجتمع العربي حافل بما يعوق ، محتاج إلى نمط ثانٍ من أنماط الاستيعاب والتقويم . ولم يكن هذا النمط الثانى مجرد بدع من النقد الذي يعنى طائفة من الناس نسميهم النقاد والأدباء والمعلمين . لقد كان طوق النجاة من الموت الذي يلتمس في غير هواة . كانت مسألة الشعر الرديء هي بعينها عند العقاد مسألة العجز عن الحياة ، فكيف يقبل التحسين الذي يعنى على الشعور بالفروق .

إن التعاطف بغير حدود قتل للاختيار وواجبات التمييز . كذلك يجعل العقاد تعريف القدماء بأدب أبي العلاء ، ولكنه يكتب عن أبي العلاء ورسالة الغفران ، والسخر عند أبي العلاء ، ورأى أبي العلاء في المرأة ، ويتصور أبا العلاء راجعاً إلى الحياة الحديثة ، دون أن يحيل على شيء من هذه الشروح . كان العقاد مهموماً بالنهضة . وهو لا يرى كفاء هذا الهم . أبو العلاء أو العقاد مهموم بالإحساس بالواجب ؛ أين صدى هذا الإحساس في التراث اللغوى حول أبي العلاء ؟ أبو العلاء ضاحك في قناته . والضحك في القناتمة من ملامح النهضة . أين هذا الضحك في ذاك التراث ؟